تاريخ فكرة إعجاز القرآن

منذ البعثة النبوية حتى العصر الحاضر، مع نقد وتعليق

- ٣ -

ودرس الأدباء قضية الإعجاز في علم البلاغة الذي انبثق ولا شك من العناية بدراسة القرآن من ناحية جماله الفني ولا ريب في أن فكرة إعجاز القرآن كانت من أقوى البواعث على نشأة علم البلاغة إن لم تكن أقواها جميعاً فقد انقسم القائلون بالإعجاز منذ البدء في بحث الموضوع بحثاً علمياً منظماً فريقين : فريقاً يقول بأن إعجازه راجع الى بلاغته وحسن نظمه وأسلوبه ، وفريقاً لا يرى إعجازه في ذلك ويلتمس له أسباباً أخرى ولكن الفريق الأول هو الأكثر ولم يكن بدّ من إثبات رأي هذا الفريق بالبرهان ولهذا أخذ أصحابه يجمعون نماذج من الأدب شعره ونثره ليقارنوها بالقرآن فألّف الجاحظ كتابه « نظم القرآن » واسمه يدلّ على محتواه ولهذا عدّ الجاحظ أول المؤلفين في البلاغة وكتابه البيان والتبيين يصلح لأن يكون حجة على ذلك بما جمل من أبحاث ونظرات هي من صميم فنون البلاغة . ويذهب بعضهم الى أن الجرجاني هو أول من ألف في البلاغة ولا يصلح أن يطلق هذا القول من غير قيد فالجرجاني هو أول من نظم الأفكار التي قيلت في الموضوع وجعلها قواعد علمية وكتابه دلائل الإعجاز يصلح دليلاً على أن علم البلاغة نشأ من فكرة الإعجاز وكذلك الأمر في كتابه أسرار البلاغة ويناقش عبد القاهر في أولها مسائل في البلاغة والنحو ويذكر بأنه ليس في استطاعة أحد أن يدرك إعجاز القرآن إذا لم يحسن التمييز بين الأشكال المختلفة للتعبير ويتذوق جمالها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والذي مهد للجرجاني السبيل الى تأليفه كتاب دلائل الإعجاز تأليف محمد بن يزيد الواسطي في هذا الموضوع وهو مفقود الآن وقد بدأ الجرجاني بشرحه شرحاً صغيراً لمس عدم كفايته فشرحه شرحاً كبيراً في كتاب سماه المقتصد فلما ظهر له أنه مقصر عن الغاية التي يريدها ألف دلائل الإعجاز بعده ، وليس بين أيدينا الآن كتاب الواسطي أو شرحا الجرجاني عليه لتتبين لنا الصلة بين المؤلفين وندرس طورين هامين من أطوار التأليف في الإعجاز والبلاغة .

وجاء الفخر الرازي (٦٠٦ هـ) فاختصر كتابي الجرجاني ونظمهما تنظيماً جديداً في كتابه « نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز » فقدم نظرية الجرجاني في النظم بشكل أوضح . وهو يتكلم على الإعجاز أيضاً في تفسيره وفي كتابيه في علم الكلام : « معالم أصول الدين » و « محصل أفكار المتقدمين » . ولكنه لا يأتي من عنده بجديد .

ومن أشهر من ألف في الإعجاز على نهج عبد القاهر الجرجاني ابن أبي الإصبع القيرواني (٦٥٤ هـ) ألف كتاب « بيان البرهان في إعجاز القرآن » وعبد الواحد الزملكاني (٦٥١) في « التبيان في علم المطلع على إعجاز القرآن » وحازم بن محمد القرطاجني (٦٨٤) الذي يقال إنه بحث هذا الموضوع في كتابه « منهاج البلغاء » وفي خزانة المدينة تصنيف للمؤلف باسم « البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن » .

ولا بدّ من القول بأن كلمة إعجاز أضحت تطلق مع مرور الأيام على علم البلاغة وأضاعت عند بعض المؤلفين المتأخرين مدلولها الأصلي الخاص فنجد مؤلفاً وهو غياث الدين لطف الله (١٠٣٥ هـ) يضع كتاباً في البلاغة سماه « الإعجاز في علم الايجاز » فلا يتكلم فيه الا على المعاني والبيان ولا يبين العلاقة بين اسم تصنيفه وموضوعه . ولعل أكبر دليل على العلاقة بين فكرة إعجاز القرآن ووضع علم البلاغة العربية هو أن الإعجاز اذا أطلق يراد به البلاغة نفسها .

ولا ينكر ما لفكرة الإعجاز من فضل في سرعة وضع علم البلاغة بيد أنها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

قصرته على الموضوعات الخاصة بالقرآن دون غيره ، فلما صاغه المتأخرون في قواعد جافة ابتعدوا به عن الذوق الأدبي الأصيل وعن تنمية الشعور بجمال الأدب كما أنها منعت الأدباء أن ينهجوا نهج القرآن في أسلوبهم خوفاً من أن يتهموا بمعارضته ويتعرضوا لنقمة العامة . وربما كان السبب الأول في عدم تناول علم البلاغة لأبحاث كان يمكن أن يتناولها بكثرة يرجع الى جمود الفكر في العصور المتأخرة وما أصاب العالم الاسلامي عامةً والعالم العربي خاصةً من الأحداث التي عاقت سيرهما في مضمار المدنية أكثر مما يرجع الى تحديد فكرة الإعجاز لموضوعات علم البلاغة .

وبعد فليست هذه الجماعات الأربع — التي بحثت مسألة الإعجاز ، وهي جماعة المعتزلة وجماعة المتكلمين وجماعة المفسرين وجماعة الأدباء — مستقلةً متباينة أبداً فقد يجمع الرجل بين الأدب والاعتزال كالجاحظ وقد يجمع بين الاعتزال وعلم الكلام والتفسير كالزمخشري ونراهم جميعاً يستمدون البراهين بعضهم من بعض .

ويبدو أن أقوم الطرق في البرهنة على الإعجاز وأحسن الوجوه في تعليله ما جاء متأخراً منها في الزمن وقد تكلم المفسرون فيه بعد علماء الكلام وتكلم فيه هؤلاء بعد المعتزلة وآخر من تكلم فيه المؤلفون في علم البلاغة من الأدباء وهم خير من تكلموا فيه وأكثرهم توفيقاً .

ومن الخير أن انتقل بعد هذه المقدمة التي بينت فيها خطوط فكرة الإعجاز الرئيسة الى الكلام على من بحثوا فيها واحداً واحداً أصنفهم على حسب العصور التي عاشوا فيها ثم بحسب الجماعة التي ينتمون اليها .

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

التوسع في الكلام على أطوار الفكرة عند العلماء

القرن الثاني :

لم يصل الينا ما دوّن في هذا القرن من آثار مدوّنة في إعجاز القرآن مؤيدةً أو منكرة . وهذا لا يعني عدم حدوث جدل في هذا الرأي ، فمن المؤكد أنها كانت من أهم المناقشات في الديانات بين المسلمين وغيرهم . وذلك من البديهيات في مثل تلك البيئة الاسلامية . وقد اتهم بالزندقة في هذا العصر كثيرون ممن كان عهدهم حديثاً بالاسلام وقتلوا من أجل ذلك . ومن أشهرهم ابن المقفع فقد قتله والي البصرة متهماً اياه بالزندقة ونسب اليه بعضهم أنه عارض القرآن وألف كتاباً حمل فيه على الإسلام وانتقد القرآن . وأول من اتهمه بذلك القاسم بن ابراهيم الرازي (٢٤٦ هـ) فقد ألف رسالة « الردّ على الزنديق اللعين ابن المقفع » وهو يعرض فيها أقوال ابن المقفع في هذا الكتاب ويحاول أن يدحضها بالحجج .

واختلفت آراء المحدثين من المؤلفين في كتاب ابن المقفع وردّ القاسم عليه . فعبد العليم الهندي [1] يرى أن الرسالة من تأليف القاسم ولكنه يشك في حقيقة نسبة الكتاب لابن المقفع وذلك دون تحقيق . والأستاذ أحمد أمين [2] يشك كل الشك في نسبة الأصل لابن المقفع والردّ للقاسم ويبين الوجوه التي تحمل على هذا الشك . والرافعي يتهكّم بمن ينسبون معارضة القرآن لابن المقفع ويرفضها : أ) لأن ابن المقفع من أكبر البلغاء ولا يخفى عليه مقدار ما بينه وبين القرآن من تفاوت في البلاغة وعجزه عن معارضته . ٢) لأن من نسبوا اليه المعارضة

---

(١) في مقاله في مجلة الثقافة الاسلامية :
The Islamic Culture N 1 and 2. 32 nd Year .

(٢) « ضحى الاسلام ج ١ ص ٢٣٥ و ٢٣٦ » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

زعموا بأنه أقلع عنها بعد أن بلغ في معارضة القرآن الى آية : « وقيل يا أرض ابلعي ماءك ... » من سورة هود أو بعد أن سمعها من صبيّ يقرأ القرآن فلا يعقل أن يقدم ابن المقفع وهو من هو في العقل والأناة على معارضة القرآن قبل أن يقرأه كله عدة مرات وكيف يقرأه ولا يطلع على هذه الآية إلا بعد أن يسمعها من صبيّ أو بعد أن يعارض قسماً كبيراً من القرآن .

٣) لأنّ الدرة اليتيمة [1] التي يزعمون أنه عارض فيها القرآن وريقات قليلة لا توازي ما بين أول القرآن والآية السابقة من حيث المقدار ولأنها مترجمة عن كتاب بزرجمهر في الحكمة وفيها عبارات منتحلة من كلام الإمام علي في نهج البلاغة [2] .

ويرى الرافعي أن قول العلماء بأن ابن المقفع قد استحيا لنفسه من معارضة القرآن بعد وصوله الى هذه الآية كذب وضعوه ليدفعوا به كذب الملحدين في أن ابن المقفع عارض القرآن فعلاً معتمداً على قوته وفصاحته ولينتهوا من ذلك الى أن ابن المقفع في عظيم قدرته ورائع بلاغته اذا عجز عن معارضة القرآن فغيره أعجز ، ويقول بأن ابن المقفع إنما رمي بالمعارضة لأنه اتهم في دينه وبأن البلغاء في عهده لم يكونوا يمترون في إعجاز القرآن وإنما كانوا يختلفون في وجوه إعجازه .

ويرجح أن الكتاب ليس لابن المقفع : ١) عدم النصّ عليه عند ذكر مؤلفات ابن المقفع غير رسالة القاسم بن ابراهيم الرازي السابق الذكر مع أن كتبه كانت معروفة مشهورة في العصر العباسي . ٢) أن أسلوب الكاتب ليس

---

(١) لا ندري ماذا يريد الرافعي بقوله الدرّة اليتيمة . فهل يقصد كتاب الادب الكبير الذي كان يطلق عليه خطأ اسم الدرة اليتيمة أو كتاب اليتيمة نفسه وهو مفقود واذا كان يقصد هذا الأخير فكيف اطلع عليه وكيف بنى حكمه .

(٢) يرى الأستاذ احمد أمين عكس ما يرى الاستاذ الرافعي فنهج البلاغة عنده قد اقتبس بعضه من الحكم المترجمة لأن بعضه في رأيه منحول .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

عربياً على ما هو معروف من براعة ابن المقفع في الكتابة وجمال الأسلوب .

٣) أن حياة ابن المقفع لا تدل على أنه كان ضعيف الرأي حتى يرتكب ما عرف به .

٤) أن « پول كراوس » من علماء المشرقيات يرى أن كتاب « خداي نامه » المنسوب لابن المقفع ليس له وانما هو لمحمد بن المقفع فلا يبعد أن يكون هذا الكتاب أيضاً له أو لغيره أو أن أحد الشعوبية قد ألفه وعزاه لعبد الله بن المقفع ليشتهر أو أن القاسم بن ابراهيم رأى الكتاب ولم يعرف صاحبه فظن أنه لابن المقفع لما عرف من اتهامه بالزندقة في حياته . هذا إذا أخذنا بالرأي القائل بأن الرد للقاسم بن ابراهيم نفسه وليس لغيره .

ونستطيع أن نجزم بعد هذا كله بحقيقة واحدة هي أن القرن الثاني قد شهد تأليف كتاب في نقد القرآن ومهاجمة الإسلام ، وأن ابن المقفع كان في جملة الأدباء والمفكرين الذين اتهموا بمعارضة القرآن .

* * *

القرن الثالث :

بدأ الكلام في الإعجاز بصورة علمية منظمة في بداية القرن الثالث أو أواخر القرن الثاني فقد رأينا كيف أرسل أحد رجال المأمون (١٩٨ — ٢١٨ هـ) وهو عبد الله بن اسماعيل الهاشمي كتاباً الى صديقه عبد المسيح بن اسحاق الكندي يدعوه فيه الى الإسلام ويذكر فيه حجج النبوة ومنها القرآن ، ورأينا كيف أجابه المسيحي على كتابه وانتقد الإسلام ولم يجبه الى الدخول في الإسلام ، وفي هذا العصر ظهرت أكثر النظريات الرئيسة في الإعجاز صدرت عن أحرار الفكر والمعتزلة والمتكلمين ، وكثر الكلام في الدين والنبوة وبحثت في الإعجاز على أنه فرع لها . نشأ ذلك لأن هذا العهد كان عهد الترجمة والاتصال بالثقافات الأجنبية ولا سيما اليونانية منها كما كان عهد حرية الفكر واختلاط أصحاب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الأديان المختلفة بعضهم ببعض فأدى تمازج هذه الثقافات وتصادم هذه الديانات الى تطور في الأفكار ونهضة علمية كان من نتاجها ازدهار العلم والأدب في هذا العصر .

وظهرت المعتزلة وقويت وظهرت معها فتنة خلق القرآن وقدمه في نهاية القرن الثاني واشتدت أيام قاضي المعتصم احمد بن أبي دؤاد (٢٣٠) وكان لا بد أن تبحث هذه المسألة كما كان من واجب المعتزلة أن يردّوا على أحرار الفكر والفلاسفة في مطاعنهم في الاسلام وظهر أول كتاب في الكلام لمؤلفه علي بن ربن الطبري في خلافة المتوكل (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ) . كما تكلم عنها بعض الأدباء المعاصرين كالجاحظ ولم يصل الينا كلام المفسرين في هذا الشأن إلا في بداية القرن الرابع . ونستطيع أن نصنف من تناولوا هذه القضية في العصر الثالث كما يلي :

أ — الى من ضعفت عقيدتهم وأنكروا الإعجاز من أحرار الفكر وأرباب الأديان ويمثلهم ابن الراوندي من المتفلسفة وعيسى بن صبيح المزدار من المعتزلة .

٢ً — والى المعتزلة الذين جنحوا الى القول بالصرفة ويمثلهم النظّام (٢٣٠ هـ) وابو اسحاق النصيبي وعباد بن سليمان وهشام القرظي وكانت وفاة الأخيرين حوالي منتصف القرن الثالث من الهجرة .

٣ً) والى المعتزلة الأدباء كالجاحظ .

٤ً) والى المتكلمين القائلين بإعجازه من جهة الأسلوب وأول من نعرفه منهم علي بن ربن الطبري الذي سبق أن أشرنا اليه .

آ — آراء منكري الاعجاز :

من أشهر منكري الإعجاز في هذا العصر ابن الراوندي وعيسى بن صبيح المزدار .

أ — ابن الراوندي :

فأما ابن الراوندي فقد ذكر الرافعي أنه كان يقول إن في القرآن كذبًا وسفهًا لأن فيه حروف هاتين الكلمتين (ص ١٤٣ من إعجاز القرآن للرافعي)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وذكر في موضع آخر (ص ١٨٧ نفس المرجع) أنه ابو الحسين احمد بن يحيى المعروف بابن الراوندي وأنه كان مشهوراً بالحط من الشريعة وأنه ألف في معارضة القرآن كتاباً سماه «التاج» وكتاباً في الطعن عليه سماه «الدافع» وقد طعن فيه على نظم القرآن ونقضه عليه الخياط وابو علي الجبائي وذكر أنه نقضه على نفسه أيضاً وأنه كان يؤلف الكتب لأعداء الإسلام بأثمان يعيش منها ثم ينقضها بأثمان أخرى ولم ينقل من معارضته للقرآن شيء وإنما ذكر صاحب معاهد التنصيص أنه اجتمع بالجبائي وأخبره عن معارضته للقرآن فقال الجبائي له : «هل تجد في معارضتك له عذوبة ومشاشة الخ قال لا والله قال : قد كفيتني فانصرف حيث شئت . وربما وضعت هذه الرواية وضعاً للقول بأنه حاول المعارضة فعجز وأنه لم يكن مخلصاً يؤمن بآرائه بل يضمر خلاف ما يعلن . وذكر الرافعي له حجة في نقض النبوة وهي أن التحدي لا يصح أن يكون دليلاً على النبوة كما لا يصح أن يضع بطلميوس أو إقليدس كتاباً في علم من العلوم ثم يتحدى الناس إلى وضعه فإن عجزوا صحت رسالته .

وذكر الدكتور كراوس أن ابن الراوندي قال في القرآن على ما رواه المؤيد الشيرازي :

«إنه لا يمتنع أن تكون قبيلة من العرب أفصح من القبائل كلها وتكون عدة من تلك القبيلة أفصح من تلك القبيلة ويكون واحد من تلك العدة أفصح من تلك العدة إلى أن قال : «وهب أن باع فصاحته طالت على العرب فما حكمه على العجم الذين لا يعرفون اللسان وما حجته عليهم ؟» .

وذكر كراوس أيضاً أن ابن الراوندي لم يكتف بنفي الإعجاز من جهة اللفظ بل تجاوز هذا إلى نقض القرآن من جهة المعاني أيضاً فقد روى عنه داعي الدعاة وكذلك ابن الجوزي في تاريخ المنتظم وعبد الرحيم العباسي في معاهد التنصيص وغيرهم كثيراً من المطاعن التي طعن بها في القرآن الكريم وقال : «إن أردت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أن تقف على مطاعن الزنادقة عامة على القرآن الكريم وعلى ردود المتكلمين عليهم فاقرأ كتاب تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار المعتزلي (٤١٥) .

وذكر عبد العليم المندي أن ابن الراوندي كتب كتابه الدافع لبعض اليهود عندما كان مقيماً معهم في مخبأ فاراً خائفاً وأنه يشبه بعض الشيء من يسمى بالرمح الحر (Free Lance) من صحفي هذه الأيام الذي يكون لك وضدك من غير مبرر ويناصر كلاً من الفريقين بالحماسة نفسها وأنه لم يصلنا من كتاباته الكثيرة إلا أشياء وردت في كتب غيره وردود عليها .

٢ً – عيسى بن صبيح المزدار :

وأما عيسى بن صبيح المزدار وتنسب اليه الفرقة المزداربة من المعتزلة فقد قال بخلق القرآن وكان مشهوراً بالزهد والورع ويلقب براهب المعتزلة ولكنه كان يكفر الناس بسرعة حتى إنه كفّر مرةً أهل الأرض قاطبةً وهو يرى أن الناس قادرون على مثل القرآن فصاحةً ونظماً وبلاغةً وعلى ذلك أصحابه (الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ط لندن ص ٣٨) .

نقد وتلخيص :

يعاب على ابن الراوندي عدم إخلاصه لحقيقة يؤمن بها فهو ينصر الرأي وضدّه لمال يقدّم اليه وهذا العيب يبرأ منه عيسى بن صبيح المشهور بورعه وإخلاصه غير أن هذا كان كما يلوح لنا ضيّق الفكر سريع الحكم والتعميم ، يظهر ذلك من تكفيره أهل الأرض قاطبة على حين أن ابن الراوندي مرن الفكر قوي الحجة ينصر الرأي وضدّه ويشبه السفسطائيين من فلاسفة اليونان . ويتفق الاثنان على أن في طاقة البشر معارضة القرآن ويكتفي عيسى بالقول بذلك أما ابن الراوندي فلا يكتفي بمجرّد القول به بل يعارضه بكلام من عنده .

واذا صحّ أن ابن الراوندي قد قال إن في القرآن سفهاً وكذباً لوجود حروف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

هاتين الكلمتين فيه دلّ ذلك على ضعف عقله وسفسطائية صبيانية فيه وربما نسب اليه ذلك ليوصم بالحمق والجهل .

وقوله بأن التحدي لا يصح أن يكون دليلاً على النبوة محتجاً على ذلك بوضع بطليموس أو إقليدس كتاباً في علم من العلوم أو ببداهة اختلاف مراتب الناس في البلاغة وطول باع أحدهم فيها عليهم قول قويّ الحجة يدل على سعة تفكير صاحبه وامتلاكه أزمّة المنطق وان كان لا يبلغ في قوته حدّ زلزلة فكرة الإعجاز من أذهان المؤمنين بها فان الإيمان الديني هو الشرط اللازم الكافي للقول بها فاذا وجد وجدت وإذا زال زالت .

ب — رأي المعتزلة القائلين بالصرفة : (النظّام) :

من أشهر المعتزلة القائلين بالصرفة وأولهم أبو اسحاق ابراهيم النظام (٢٣٠) وهو أستاذ الجاحظ في الاعتزال ، وكان يرى أن الإعجاز كان بالصرفة وهي أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها فكان هذا الصرف خارقاً للعادة وبهذا يكون الصرف هو المعجز لا القرآن نفسه ويروون له رأياً آخر في الإعجاز وهو أن القرآن إنما أعجز العرب لما فيه من الإخبار عن الأمور الماضية والآتية (إعجاز القرآن للرافعي ص ١٤٤) .

وذكر الفخر الرازي أن النظام قال : « إن الله تعالى ما أنزل القرآن ليكون حجة على النبوة بل هو كسائر الكتب المنزلة لبيان الأحكام من الحلال والحرام والعرب إنما لم يعارضوه لأن الله تعالى صرفهم عن ذلك وسلب علومهم به . (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز) .

ولم يصلنا شيء من كتب النظام أو أبحاثه وإنما عرفنا رأيه من الكتب الأخرى التي بحثت في هذا الموضوع . ونلاحظ أن القول بالصرفة يرجع في حقيقته الى إنكار الإعجاز ولكن تحت ستار خادع من القول به وربما كان ذلك لاتقاء غضب السلطة او الجمهور .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

جـ ـ آراء المعتزلة الأدباء : (الجاحظ) :

كان الجاحظ معتزليًا ومن أئمة البيان وقد وضع كتابًا في إعجاز القرآن من جهة النظم والأسلوب سماه نظم القرآن . وقد وردت بعض آرائه في البيان والتبيين وفي كتاب الحيوان وفي كتب غيره من المؤلفين بعده في الإعجاز .

ونرى الجاحظ يعتقد بالاعجاز ويذكر أن العرب على بلاغتهم عجزوا عن معارضة القرآن أيام صاحب الرسالة وذلك في كلام طويل يشرح فيه كيف قامت المشادة بين النبي والعرب بعد أن تحداهم الرسول أن يأتوا بمثل القرآن ويذكر له ما يدل على أن إدراك العرب لبلاغة القرآن المعجزة وقصورهم عنها كان بالذوق والشعور النفسي الداخلي وأن هذا القصور دليل على الاعجاز (الاتقان للسيوطي ج ٢ ، ص ١٩٨) .

ومن الغريب ما ذكره الشهرستاني (في الملل والنحل ص ٥٣ ج ١ ط لندن) من أن ابن الراوندي حكى عن الجاحظ أنه قال إن القرآن جسد يجوز أن يقلب مرةً رجلاً ومرة حيواناً ومثل هذا الرأي يضحك إذا نسب للجاحظ لما نعرفه عن تهكمه على مثل هذه الآراء .

وذكر للجاحظ قولان في الاعجاز : القول بالصرفة والقول باعجاز الأسلوب فهل قال بالأول حين كان لا يزال متأثراً بآراء أستاذه النظام وبالثاني حين استقل بنفسه أو إنه جمع بين الرأيين معًا ؟ لا ندري ! فانه يذكر الرأيين في كتابه الحيوان (ج ٤ ص ٣١ و ٣٢) متتاليين تقريبًا . فيقول فيما يتعلق بالصرفة :

« ومثل ذلك ما رفع من اوهام العرب وصرف نفوسهم عن المعارضة للقرآن بعد ان تحداهم الرسول بنظمه ولذلك لم نجد احداً طمع فيه ولو طمع فيه لتكلفه ولو تكلف بعضهم ذلك فجاء بأمر فيه ادنى شبهة لعظمت القصة على الأعراب واشباه الأعراب والنساء واشباه النساء ولألقى ذلك للمسلمين عملاً ولطلبوا المحاكمة والتراضي ببعض العرب ولكثر القيل والقال فقد رأيت اصحاب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

مسيلمة واصحاب بني النواحة إنما تعلقوا بما الف لهم مسيلمة من ذلك الكلام الذي يعلم كل من سمعه انه إنما عدا على القرآن فسلبه واخذ بعضه وتعاطى ان يقارنه فكان لله ذلك التدبير الذي لا يبلغه العباد ولو اجتمعوا له » .

ويقول فيما يتعلق باعجاز النظم والأسلوب : « فلم يبق له رأي — اي للدهري الذي لا يقول بالتوحيد — إلا ان يسألنا عن الأصل الذي دعا الى التوحيد والى تثبيت الرسل في كتابنا المنزل الذي يدلنا على انه صدق نظمه البديع الذي لا يقدر على مثلة العباد مع ما سوى ذلك من الدلائل التي جاء بها من جاء فيه » .

ويذكر الجاحظ في الحيوان (ج ١ ، ص ٥) ما يفهم منه انه الف كتاباً في نظم القرآن وغريب تأليفه — وقد وضعه رداً على بعض المعتزلة الذين قالوا بأن فصاحة القرآن غير معجزة وهذا اول كتاب افرد في الاعجاز كما يقول الباقلاني الذي سنرى نقده له فيما بعد — وانه الف ايضاً كتاباً اسمه « الحجة في تثبيت النبوة » وهذا يدلنا على تعرضه لعدة مسائل كلامية كان المعتزلة يعالجونها . وانا استبعد ان يكون الجاحظ قد قال بالرأيين معاً في وقت واحد لما نعرفه عنه من قوة التفكير ووضوح الحجة فان الرأيين متناقضان . ولم يتوسع الجاحظ في شرح نظرية النظم والاستشهاد عليها بأمثلة من القرآن ومن كلام العرب كما فعل من قالوا بها بعده كعبد القاهر الجرجاني لأنه — اي الجاحظ — كان اول من قال بها . وله فضل وضع الأسس التي شيد عليها أخلافه صروح حججهم .

د — المتكلمون القائلون باعجاز القرآن من جهة الأسلوب :

علي بن ربن الطبري :

ظهرت مسألة الأسلوب مبكرة في إعجاز القرآن ظهوراً واضحاً في كتاب الدين والدولة لعلي بن ربن الطبري معاصر المتوكل ص ٤٠ حيث يقول : « حينما كنت مسيحياً كنت أقول كما يقول عمّ لي متعلم بليغ بأن أسلوب القرآن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ليس معجزاً وليس من علامات النبوة لأنه في استطاعة الناس كلهم ولكن عندما حاولت تقليده واطلعت على مدلول كلامه علمت ان أتباع القرآن على حق فيما يدّعونه له لأني لم أطلع على كتاب يأمر بالخير وينهى عن الشر ويقدم شريعة الله والعقيدة في النبوة وإلهام الرغبة في الجنة والبعد عن النار كالقرآن فمندما يحمل لنا شخص كتاباً يحمل نفس المميزات ويوحي الينا بهذه الطلاوة وهذه الروعة في القلوب ويحوز مثل هذا النجاح ويكون بنفس الوقت أمياً لم يتعلم أبداً فن الكتابة والبلاغة فهذا الكتاب يكون بلا شك إحدى علامات نبوته »

فالمعجز عند ابن ربن الطبري إذن هو هدف القرآن الاصلاحي وتحقيقه هذا الهدف وأوامره ونواهيه وإخباره عن الجنة والنار وأسلوبه الطلي الرائع برغم أمية النبي .

* * *

القرن الرابع :

من أهم من كان لهم كلام في موضوع الإعجاز في هذا العصر أو لهم صلة به المتنبي شاعر العربية الكبير فقد اتهم بمعارضة القرآن ، وابو الحسن الأشعري الذي كان في اول أمره معتزلياً ثم تحوّل الى مذهب أهل السنة وصار من أشهر متكلميها الذين نافحوا عنها ، وبندار الفارسي المتكلم ، والطبري والقمّي المفسران ، والواسطي والرمّاني والخطابي المتكلمون الأدباء ، وأبوهلال العسكري الأديب وسنلخص آراءهم وما قيل فيهم على الترتيب مصنفين بحسب الطوابع الفكرية التي امتازوا بها .

١ً — المتنبي :

اتهم في هذا العصر ابو الطيب احمد بن الحسين المتنبي الشاعر (٣٥٤ هـ) بأنه ادعى النبوة وعارض القرآن وحبسه والي حمص من أجل ذلك .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقيل إنه ادعى النبوة في حداثة أمره في وادي السماوة ـ بين الكوفة والشام ـ وتبعه خلق كثير من بني كلب وكان يتظاهر أمام الناس بالقيام بالخوارق وقد ذكر المعري بعضها في رسالة الغفران (راجع ص ٢٢٠ من رسالة الغفران) .

وقيل إنه تلا على البوادي كلاماً زعم أنه قرآن أنزل عليه يحكون منه سوراً كثيرة وإن ابن حامد قال : « نسخت واحدة منها فضاعت مني وبقي في حفظي من أولها : « والنجم السيار والفلك الدوار والليل والنهار إن الكافر لفي أخطار ، امض على سننك واقف أثر من كان قبلك من المرسلين فإن الله قامع بك زيغ من ألحد في دينه وضلّ عن سبيله » .

ويقول الرافعي إن هذا لا يساوي نثره ولا شعره بلاغة عما لم يقصد به أن يكون قرآناً كقوله يعاتب صديقاً له زاره في مرضه وانقطع عنه في إبلاله : « وصلتني وصلك الله معتلاً ، وقطعتني مُبِلاً فإن رأيت ألا تحب العلة إلي ولا تكدر الصحة علي فعلت إن شاء الله » . (إعجاز القرآن للرافعي في الكلام على من عارضوا القرآن) .

٢ً ـ أبو الحسن الأشعري المتكلم :

وفي هذا العصر يتعرض لهذا البحث ابو الحسن الأشعري (٣٢٤) في كتبه ولكن هذه الكتب ضاعت وليس فيما بقي منها كلام فيه ووصلنا شيء من أفكاره عنه في كتب أخرى لغيره من المؤلفين (مقالة عبد العليم الهندي السابقة) .

ومجمل ما ذكر عنه من الآراء يتلخص فيما يلي :

اً) ذكر ابن حزم (الفصل في الملل والنحل ص ١٥ فصاعداً) قولاً روي عن الأشعري وهو أن المعجز الذي تحدى الناس بالمجيء بمثله هو الذي لم يزل مع الله تعالى ولم يفارقه قط ولا نزل الينا ولا سمعناه . ويردّ ابن حزم على ذلك بأنه لا يمكن تحديهم بشيء لم يروه ويمكن أن نفهم من قول الأشعري أن القرآن الذي بين أيدينا غير معجز .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

٢ً – ذكر ابن حزم (المرجع السابق نفسه) والرافعي (ص ١١٧ من إعجاز القرآن) أن مقدار المعجز عند الأشعرية مقدار أقل سورة في القرآن وهم يحتجون على رأيهم هذا بقول القرآن : «قل فأتوا بسورة من مثله» وقالوا ولم يتحدّ القرآن بأقل من ذلك .

ولا يوضح هذان الرأيان رأي الأشعري في الاعجاز فالأول يمكن أن يفهم منه أن الأشعري لا يقول باعجاز القرآن الذي بين أيدينا ، والثاني لا يتكلم إلا على أقل مقدار تحدّى فيه القرآن العرب .

٣ً – بندار الفارسي المتكلم :

ويتكلم ابو حيان التوحيدي في مسأله الاعجاز (الاتقان بحث الاعجاز ص ١٩٨ من الجزء الثاني) فيذكر رأي بندار الفارسي في الاعجاز فيقول : «سئل بندار الفارسي عن موضع الاعجاز من القرآن فقال هذه مسألة فيها حيف على المعنى وذلك شبيه بقولك ما وضع الانسان من الانسان فليس للانسان موضع من الانسان بل متى أشرت الى جملته فقد حققته ودللت على ذاته كذلك القرآن لشرفه لا يشار الى شيء منه إلا وكان ذلك المعنى آية في نفسه ومعجزة لمحاوله وهدى لقائله وليس في طاقة البشر الاحاطة بأغراض الله في كلامه وأسراره في كتابه فلذلك حارت العقول وتاهت البصائر عنده .

ويظهر لنا من كلام بندار أنه متكلم يريد أن يحسن التخلص فالقرآن معجز لأنه معجز ولأنه كلام الله فمن البديهي إذن أن يكون كلام البشر دونه ويلاحظ أنه عوضاً عن أن يستدل بالإعجاز على صحة النبوة وأن القرآن لذلك كلام الله عكس الآية ففرض ان كونه كلام الله قضية مسلمة وأنه لذلك كان معجزاً وهو يصور لنا انحرافاً خاصاً في فهم مسألة الاعجاز لم يكن عند الأولين .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

٤ – الطبري المفسّر :

وفي هذا الزمن نرى الطبري المفسر (٣١٠) يتكلم في تفسيره عن الاعجاز خلال تفسيره لآية التحدي من سورة البقرة (سورة ٢ آية ٣٢ – ٣٣) وقد ذكرت في المقدّمة شيئاً عنه وعن ميزة كلامه في هذا الموضوع بين المفسرين ومجمل ما كتبه في تفسير هذه الآية (ص ٦٥ ج ١ من تفسيره) يتلخص بما يلي :

١ – القرآن معجزة باقية أبد الدهر لا يستطيع الجن والإنس في كل عصر الإتيان بمثلها في البيان .

٢ – القرآن معجز لما فيه من القدرة على إبانة ما يقصده المتكلم .

٣ – تحدى القرآن العرب بمثل القرآن الذي هو بلغتهم ومعاني منطقه موافقة معاني منطقهم (ويلاحظ هنا أنه يقصد بالمنطق اللفظ لا العلم المعروف) .

٤ – عجز العرب عن معارضته الا من أتى بسخافات من نوع أقوال مسيلمة « والطاحنات طحناً الخ » .

٥ – ذكر الوجوه التي يتفاوت فيها الكلام بلاغةً وما ورد منها في اللسان العربي وهي في جملتها لا تخرج عما يطرقه علم البلاغة من أبحاث التقديم والتأخير والاستعارة والايجاز والاطناب .

وعرض الطبري لمسألة النظم فقال : « ومن أشرف تلك المعاني التي فضل بها كتابنا سائر الكتب قبله نظمه العجيب ووصفه الغريب وتأليفه البديع الذي عجزت عن نظم مثل أصغر سوره الخطباء وكلّت عن وصف شكله البلغاء وتحيرت في تأليفه الشعراء ... الخ (ص ٦٥ ج ١ من تفسير الطبري) .

(يتبع) نعيم الحمصي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net